الفصل العاشر

الاهتمام أو الشغف

فى آخر حديث ألقيته على مسامعكم عالجت موضوع الميول الفطرية لدى الطالب التى تحدث رد فعل بطرق محددة لها مواصفات خاصة عند ملاقاة الحوافز المختلفة ، أو الظروف المثيرة .

وفى الحقيقة انصب كلامى على غرائز الطالب .

بيد أن بعض المواقف تستدعى غرائز خاصة منذ البداية والبعض الآخر يخفق فى ذلك حتى تنتظم الارتباطات المناسبة أثناء مرحلة تدريب الشخص .

فأما المجموعة الأولى من المواقف فنقول عنها إنها مثار اهتمام فى ذاتها أصلا .

وأما المجموعة الثانية من المواقف فنقول عنها إنها ليست مثار اهتمام فطرى ، وان الاهتمام أو الشغف بها لابد وأن يكتسب أولا .

ولعل موضوع الاهتمام قد ظفر بعناية واهتمام الكتاب البيداجوچيين أكثر من أى موضوع آخر .

إنه التابع الطبيعى للغرائز التى شرحناها أخيرا جدا ، وهو لذلك مناسب جدا لأن يكون الموضوع التالى الذى نتناوله .

وحيث ان الاهتمام فطرى فى بعض الأمور أو الأشياء ، ومكتسب فى بعضها الآخر بمجهود مقصود اصطناعى ، فيتعين على المعلم أن يعرف أى الاهتمامات يكون فطريا ؛ لأننا — كما سنرى حالا — سنجد أن

الموضوعات الأخرى التى يكتسب فيها الاهتمام أو الشغف اصطناعيا لايمكن أن تصبح كذلك الا اذا ارتبطت أولا بواحد أو أكثر من تلك الاهتمامات الفطرية .

ان الاهتمامات الفطرية للأطفال تقع كلها فى دائرة الحس والحواس . فالأشياء الجديدة التى تلفت النظر والأصوات المستحدثة التى تسمع ، وبخاصة اذا اقترن المنظر بحركة ، والصوت بعنف طحوم ، تحول الانتباه دائما من المفاهيم المجردة للأشياء التى تنم عن طريق الكلام .

فحركات اعوجاج الوجه التى تصدر عن چونى ، وكرات البصاق التى يستعد تومى لتفلها ، ومعركة الكلاب فى الشارع — أو الأصوات البعيدة لأجراس المطافى — هذه هى العوامل المنافسة للمعلم الذى يتعين عليه أن يلاقيها بكل قواه باستمرار لكى يركز اهتمام طلابه وشغفهم فيه أو فيما يعلمهم اياه .

ان الطفل — دائما — يعطى انتباها أكثر لما يفعله المعلم — مما يقوله المعلم نفسه .

فأثناء إجراء التجارب ، أو عندما يرسم المعلم شيئا على السبورة يخيم الهدوء على الأطفال ويقيد انتباههم .

لقد رأيت قاعة ممتلئة بطلاب الجامعة يخيم عليها الصمت والهدوء فجأة لكى يشاهدوا أستاذهم وهو يربط فتلة من الخيط حول عصا كان يزمع استعمالها فى تجربة ، ثم لا يلبثوا أن يتململوا ويهمهموا وينمنموا بمجرد أن يبدأ فى شرح التجربة .

ولقد أخبرتنى سيدة أنها ذات يوم فى أثناء الدرس كانت فى غاية الامتنان ؛ لأنها استطاعت أن تسيطر سيطرة كاملة على انتباه أحد الصغار

الذين وكل اليها أمرهم ، وظلت عيناه مثبتتين على وجهها لا تبغيان عنه حولا . ولكنه قال لها بعد انتهاء فترة الدرس « لقد كنت أنظر اليك طوال الوقت ولم يتحرك فكك الأعلى ولا مرة » .

تلك كانت الحقيقة الوحيدة التى عرفها .

فالكائنات الحية اذن ، والأشياء المتحركة والأشياء التى تتصف بالخطر أو ينبثق منها الدم — الأشياء ذات الصبغة المسرحية — هذه كلها هى الأشياء التى تثير الاهتمام الفطرى للطفولة — ولا شىء سواها تقريبا .

ومعلم الأطفال الصغار ينبغى أن يجارى طلابه باللجوء المستمر لهذه الأشياء ليظل اهتمامهم موصولا وشغفهم نابضا ، حتى تنضج لديهم اهتمامات أخرى مكتسبة ومصطنعة .

ينبغى اذن أن يقوم التعليم على موضوعات حية ملموسة محسوسة ، وأن ينتهج نمطا تجريبيا ويسلك سبيلا قصصيا .

فالرسم على السبورة ، وسرد القصص ، ينبغى أن يفسح لهما أكثر مجال فى التعليم ، وأن يلجأ المعلم اليهما باستمرار .

بيد أن هذه الطرق لا تغطى الا الخطوات الأولى فقط،ولا تمضى بالمعلم ولا المتعلم الى نهاية الشوط وانما تهديهما سواء السبيل وتدفع بهما قدما على أول الدرب .

هل نستطيع الآن أن نصوغ قانونا عاما نربط به الاهتمامات المصطنعة والمكتسبة نفسها بتلك الاهتمامات الفطرية المبكرة التى يجلبها الطفل معه الى المدرسة ؟

من حسن الحظ أننا نستطيع أن نفعل ذلك .

فهناك قانون بسيط جدا يربط الاهتمامات المكتسبة بالاهتمامات الفطرية برباط وثيق .

هذا القانون هو :

أى شيء أو موضوع لا يثير الاهتمام والشغف فى حد ذاته يمكن أن يصبح مثار الاهتمام أو الشغف بأن يرتبط بشيء أو موضوع يكون الاهتمام به أو الشغف به قائما بالفعل وموجودا أصلا .

عندئذ ينمو الشيئان المترابطان معا ؛ فالجزء مثار الاهتمام أو الشغف يخلع صفته وكيفه على الكل، وبذلك تقترض الأشياء التى لم تكن مثار اهتمام أو شغف فى ذاتها وحسب ، اهتماما أو شغفا يصبح فى فاعليته وقوته مثل أى موضوع أو شيء آخر مثار اهتمام فطرى .

والعجيب فى الأمر أن المدين لا يفقر الدائن ، والمقترض لا يفلس المقرض .

فاجتماع الشيئين معا يجعلهما أكثر إثارة للاهتمام والشغف مما كان عليه الأمر عندما انفرد الجزء الأصلى وحده بالمجال . هنا يؤكد الدخيل الأصيل ولا يخلخله ويقويه ولا يضعفه .

وهذا من أعظم البراهين الساطعة دلالة على مدى تطبيق قانون تداعى الأفكار وترابطها فى علم النفس .

إن الفكرة تلقح غيرها وتغذيها بما تحمله فى طياتها من اهتمام انفعالى عندما ترتبط الفكرتان معا فى أى نوع من أنواع التفكير الكلى .

وحيث إنه لا يوجد حد للارتباطات المتنوعة التى يمكن أن تدخل فيها وتلقحها وتغذيها فكرة محملة بالاهتمام والشغف ، فاننا نستطيع أن نتبين الطرق العديدة التى يمكن أن يشتق منها الاهتمام أو الشغف .

وستفهمون هذه العبارة المجردة بسهولة — اذا ضربت لكم مثلا من أكثر الأمثلة المحسوسة شيوعا — ألا وهو الاهتمام الذى يضفى على الأشياء بسبب ارتباطها بمصلحتنا الشخصية .

ان أكثر الاهتمامات الفطرية أهمية لدى الشخص هو نفسه وما تملكه يده .

وبناء عليه فاننا نلمس أنه بمجرد أن يرتبط الشيء بمقدرات أو ممتلكات النفس ، فانه يصبح فورا محملا بالاهتمام والشغف .

أعر الطفل كتبه وأقلامه وبقية أدواته ، ثم هبها له واجعلها ملكا خالصا له ، ولاحظ النور الجديد الذى يغمر وجهه مباشرة ، والبريق الذى يلتمع فى عينيه عندئذ .

ستتغير نظرته حيالها ويحرص عليها حرصا مختلفا كليا عما كانت الحال عليه وقت الاستعارة .

وفى حياة الكبار : ما الذى يحدث فى خضم الحياة بدواعيها ومشكلاتها ؟

يكدح الشخص ويقاسى فى تجارته أو مهنته أو عمله كدحا لا يطاق فى حد ذاته ، ولكنه يحتمله ويمضى فيه باهتمام بالغ يملك عليه كل حواسه ويرهقه من أمره عسرا لا لشيء الا لأنه يعلم أنه مرتبط بمصيره الشخصى بمقدراته وممتلكاته .

هل يوجد شيء أكثر مواتا لا يثير اهتماما ولا شغفا مثل جدول مواعيد القطارات ؟

ولكن أين تجد شيئا أكثر اثارة لاهتمامك اذا كنت تنوى السفر بحيث لا تستطيع أن تعرف قطارك وموعد قيامه الا بوساطته ؟

فى مثل هذه الأوقات يمتص جدول مواعيد القطارات اهتمام المرء كله . أما الاهتمام به فمرتبط فقط بمصلحتك الشخصية .

من كل تلك الحقائق ينبثق برنامج بسيط مجرد يتبعه المعلم لكى يحفظ انتباه الطفل .

ابدأ على مسار اهتماماته الفطرية ، وقدم له أشياء أو موضوعات لها ارتباط مباشر بتلك الاهتمامات .

إن الطرق المتبعة فى رياض الأطفال — دراسة الأشياء المحسوسة الملموسة واستعمال السبورة والأشغال اليدوية ، كلها تؤيد هذا الجانب وتؤكده وتعترف به .

والمدارس التى تسود فيها هذه الطرق هى المدارس التى تسلس قيادتها ويتيسر فيها النظام ، حيث لا يرتفع فيها صوت للمعلم بالزجر أو الأمر أو النهى ، ولا يلجأ فيها المعلم إلى حيل تهديدية لصيانة وحفظ انتباه الطفل .

ثانيا — خطوة خطوة اربط بهذه الأشياء الأولية والخبرات المبكرة الأشياء والأفكار والموضوعات التى تريد أن تلقنها للطفل أو تدخلها فى عقله .

اربط الجديد بالقديم بطريقة طبيعية اخبارية حتى يشيع الاهتمام — وهو ينسكب وينساب من نقطة لأخرى — فى أرجاء كل الجهاز الذى ينتظم موضوعات التفكير .

هذا هو التعبير المجرد . ومن الناحية المجردة لا يوجد شىء يسهل فهمه أكثر من ذلك .

إن الصعوبة تكمن فى تحقيق القاعدة واكتمالها لأن الفرق بين مدرس ناشط قادر على اثارة الاهتمام والشغف ومدرس خامل ممل ، يربض فى شىء أكثر من الابتكارية التى يستطيع بها أحدهما أن يكون وسيطا لهذه الارتباطات والدواعى ، والسآمة والملل التى تصدر عن ثانيهما وهو يستكشف هذه التحولات التى ينتهجها الآخر .

فهناك معلم له عقل يلمع ويبرق بنقاط الارتباط والتداعى بين الدرس

الجديد وبين ظروف الخبرات الأخرى للأطفال، فحديثه يزخر بالقصص والحكايات والنوادر والذكريات على حين يتحرك مكوك الاهتمام الى الأمام والى الوراء وهو ينسج القديم والجديد معا بطريقة جذابة مسلية تفيض بالحيوية ، وتتألق بالشغف ، وتنبض بالحياة .

وهناك معلم آخر يفتقر الى هذه الخصوبة الابتكارية الخلاقة — درسه جامد مجدب ثقيل الوطأة . هذا هو المعنى السيكولوجي لقانون الأهبة أو الاستعداد أو التهيؤ عند هربارت — بالقياس الى كل درس وربط الجديد بالقديم . هذا هو المعنى السيكولوجي لطريقة التركيز — برمتها فى الدراسات — التى سمعتم بشأنها كلاما كثيرا فى الأوقات الأخيرة .

عندما تدرس مواد الجغرافيا والتاريخ والحساب ككل وتشير كل منها الى الأخرى — وترجع هذه الى تلك وتستعين بها وتستعير منها فالذى يحدث أنه يصبح لديك مجموعة ملذة ومفيدة من العمليات والسبل فى كل هذه المواد — فى وسائلها وغاياتها .

فاذا أردت — اذن — أن تتأكد من اثارة الاهتمام والشغف فى تلاميذك فهناك طريقة واحدة لأداء ذلك ، وهى أن تتأكد من أن لديهم فى عقولهم شيئا يهتمون به ويلتفتون اليه ويعنون به عندما تبدأ فى الكلام .

هذا الشىء قد لا يتكون من شىء سوى حشد من الأفكار السائغة التى تثير الاهتمام والشغف فى حد ذاتها ، ولها من طبيعتها ما يجعل الموضوعات الجديدة الوافدة التى تعرضها تتعشق فيها وتتشكل معها فى مجموعها كلا منظما منسقا مترابطا مع بعضه ترابطا منطقيا .

ومن حسن الحظ أن أى نوع — تقريبا — من الارتباط كاف لدفع عجلة الاهتمام الى الأمام .

ما أكثر المعونة التى تقدمها لنا حربنا مع الفيلبيين — فى الوقت الحاضر — فى تدريس الجغرافيا .

ولكن قبل نشوب حربنا مع الفيلبيين — كان فى إمكانك أن تسأل الأطفال عما اذا كانوا يستعملون الفلفل الأسود عندما يأكلون البيض ؟ ومن أين يظنون أننا نستورد الفلفل الأسود ؟

أو اسألهم عما اذا كان الزجاج حجرا ، وان لم يكن حجرا فماذا يكون ؟ ثم دعهم يعرفوا كيف تتكون الأحجار ، وكيف يصنع الزجاج .

ان حلقات الربط الخارجى ستنفع تماما مثل الروابط الأكثر عمقا والأكثر منطقية .

ولكن بمجرد أن ينسكب الاهتمام أو الشغف على موضوع ما فهو فى الغالب يظل لاصقا به وعالقا به دائما .

فمكتسباتنا ومعلوماتنا تصبح — على نحو ما — أجزاء من حياتنا الشخصية رويدا رويدا ، مع تكاثر الارتباطات وألوان التداعى المتشابكة ونمو وانبثاق عادات الايلاف مع الجديد وممارسته بتوحيد الجهاز الكلى لموضوعات تفكيرنا — اذ يصبح معظمه مثار اهتمام وشغف بالقياس الى بعض أغراضنا والى درجة ما .

إن كل اهتمام من اهتمامات الشخص الكبير — تقريبا — اهتمام مصطنع ، محصل ، مكتسب الى درجة كبيرة . لقد تم غرس كل اهتمام منها وبناؤه ببطء . إن معظم موضوعات اهتماماتنا المهنية — فى طبيعتها الأصلية — منفرة بل وكريهة . ولكن لكونها مرتبطة بموضوعات مثيرة فطريا — كمستقبلنا الشخصى ومسئولياتنا الاجتماعية بقوة العادة المتعودة المتأصلة ، فانها تصبح الأشياء الوحيدة التى نعنى بها عناية عميقة ونكرس لها جهدنا واهتمامنا فى أواسط العمر .

ولكن فى كل تلك الحالات نجد أن عمليتى الانتشار والتوحيد لم تخضعا لشىء سوى القوانين والمبادىء التى وضعناها فى مطلع هذا الحديث .

لو أننا استطعنا أن نذكر لبرهة وجيزة كل تاريخ حياتنا الشخصى لرأينا أن مثلنا العليا المهنية والغيرة والحماسة والشهامة — التى بعثتها فى نفوسنا وأوحت الينا بها — مردها الى شىء واحد فقط — ولا شىء سواه — ألا وهو النمو البطىء المتزايد من موضوع عقلى الى غيره الذى يمكن تتبعه الى الوراء من نقطة لأخرى حتى يصل الى اللحظة التى كنا فيها فى مدرسة رياض الأطفال أو فى قاعة الدرس عندما استمعنا الى قصة تحكى ، أو رأينا شيئا يعرض على أنظارنا ، أو شاهدنا عملية تجرى أمامنا ، أو تجربة تؤدى على مرأى منا . وانها عرفتنا بالموضوع الجديد وقربته الى أذهاننا ، وأثارت اهتمامنا وشغفنا به ، بأن ربطت بينه وبين أحد اهتماماتنا الفطرية الموجودة أصلا فينا .

هذا الاهتمام الذى انتشر وشاع وذاع فى أرجاء جهازنا كله انبثق من هذا الحدث الصغير الذى يبدو لنا الآن عديم الأهمية ، بحيث إنه أصبح نسيا منسيا .

فكما أن النحل فى تكتله يلتصق بعضه ببعض فى تجمعات أو طبقات — حتى تصل المجموعة التى تقبض بأرجلها على الغصن الذى يتعلق به ثول النحل فكذلك الأمر بالقياس الى موضوعات التفكير — يلتصق بعضها بالبعض الآخر ويرتبط بحلقات الترابط والتداعى — ولكن المصدر الأصلى للاهتمام أو الشغف فيها كلها — هو الاهتمام الفطرى الذى انبثق من أولها وحازه أول واحد فيها .